الأساليب الفنية في القصة القرآنية

بقلم : دكتور محمد احمد خلف الله

ونبدأ بدراسة أسلوب القرآن الكريم فى رسم الصورة أو عرض الحادثة ، ونلحظ أن القرآن لم يسلك طريقة واحدة وانما نوع فى قصصه ونلحظ من تنويعه هذه الظاهرات :

١ ـ كان القرآن الكريم يعتمد أحيانا على الألفاظ الفخمة الضخمة ذات الرنين القوى التى تؤثر بمبناها ومعناها ، كما تؤثر بموسيقاها ،وكان يعمد أحيانا الى الجمل المسجوعة القصيرة الفقرات ، ليزيد من قوة الرنين ، فتملأ موسيقى الألفاظ الأذن نغما والقلب خشية ورهبة أو غبطة وسرورا · وذلك من أمثال هذه القصص « **كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر ، فدعا ربه انى مغلوب فانتصر ، ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات ألواح ودسر ، تجرى بأعيننا جزاء لمن كان كفر ، ولقد تركناها آية فهل من مدكر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، كذبت عاد فكيف كان عذابى ونذر ، انا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى يوم نحس مستمر ، تنزع الناس كأنهم اعجاز نخل منقعر ، فكيف كان عذابى ونذر ، ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » ·

* * *

٢ ـ وكان يعتمد أحيانا أخرى على تتابع الأحداث تتابعا سريعا لتؤثر فى النفس وتهز الفؤاد ، وذلك من أمثال قوله تعالى : «**فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين**» ولعل هذا هو الذى وعاه أيضا الى أن يجمع ألوانا من القصص فى سورة واحدة ،وذلك من أمثال قصص الأعراف وهود والشعراء والقمر ·

* * *

٣ ـ وكان أحيانا أخرى ـوهو الغالبـ يعتمد على الألفاظ السهلة اللينة التى

تصدر عنه كما تصدر الالفاظ فى الاحاديث العـــادية • يقص وكأنه يخاطب القوم بلغتهم العادية ويتحدث اليهم أحاديثهم المألوفة ، ويلاحظ فى مثل هذا اللون أن حركة الأسلوب كانت تتمشى مع حركة العاطفة ، ولعل خير مايمثل هذه الخاصية هذا الجزء من قصص موسى : « **ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين تذودان قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال رب انى لما أنزلت الى من خير فقير فجاءته احداهما تمشى على استحياء ، قالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، فلما جاءه وقص عليه القصص قال لاتخف نجوت من القوم الظالمين • قالتاحداهما يا أبت استأجره ان خير من استأجرت القوى الأمين • قال انى أريد أن أنكحك احدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج فان أتممت عشرا فمن عندك وما أريد أن أشق عليك ستجدنى ان شاء الله من الصالحين • قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على والله على ما نقول وكيل** » •

فنحن نلحظ فى الجزء الأول وهو الخاص بورود موسى ماء مدين استعمال الفعلين المضارعين يسقون وتذودان للدلالة على الحركة ، ولتصوير الأحداث حتى لكأنها حاضرة مشاهدة ، وليس ذلك الا لانهما الفعلان الدالان فى هذا الجزء من الآية على ما سيقع ، وكأنما ينبهاننا الى أن هذه الأحـــداث هى التى تهم موسى ، ولقد كانت هى التى استثارته فعلا ، فالناس يسقون وهاتان تذودان ، ولذا تقـــدم الى الفتـــاتين قائلا ما خطبكما • ؟ وأظنك تلحظ معى مافى هذا اللفظ من عنف وجزالة ، وما فيه من دلالة على تلك الخواطر التى ألمت بذهن موسى ، وانى لأحس منـــه الغضب على أولئك الذين يسبقون الفتاتين الى السقيا •

وتنطق الفتاتان بهذه الجملة التى تدل على مافى الأنثى من ضعف وحياء يدفعانها الى التخلف فى مثل هذه المواقف التى يكثر فيها التزاحم ويختلط فيها النساء والرجال « **لانسقى حتى يصدر الرعاء** » وبهذه الجملة التى تستثير الرحمة وتستمطر الحنان ، « وأبونا شيخ » انها لالفاظ سهلة لينة تداعب رقتها الآذان والقلوب ، وانها الجمل التى تنطق بها الأنثى ، والأنثى ليس غير مافى ذلك شك أو جدال •

ويأتى جزء آخر دال على الحركات الخاطفة السريعة التى يأتى بها الانسان ليصل الى ماوراءها « **فسقى لهما ثم تولى الى الظل** » ونلحظ موسى هنا وفى هـــذا الظل متراخيا منهوك القوى مستسلما ضارعا : «**رب انى لما أنزلت الى من خير فقير**» •

وتمشى الجملة مع هذه الضراعة ويطل الشعور الدينى من وراء النـــداء ومن التصريح بالفقر والحاجة الى الخير أمام الغنى الكبير •

على أن ألمقام بموسى لن يطول فقد جاءته احداهما تمشى على استحياء ألا ما أرق هذه الجملة وما أخف وقعها على الاسماع والقلوب ، وما أقدرها على تصوير الحركة والانفعال ، تمشى وتمشى على استحياء ثم ما أجمله من تعبير دال على خير ما فى الفتيات من جمال هو جمال الخفر والحياء ، جاءته فقالت ان أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنا ، وهل ينتظر موسى حتى يجيب ؟ انه عجل لانه فى حاجة الى هذا الأجر ، وهو الغريب الفقير ، واذن فلتطو الاجابة وليطو معها الطريق وليلق موسى الشيخ وليقص عليه القصص ، وهل يفعل غير هذا الغريب الطريد ؟

ويفطن الشيخ الى ما بنفس الفتى المطلوب للثأر ، فيقف منه موقف الشـــهم الكريم ،ويلقى اليه تلك العبارة التى ترد عليه الهدوء والطمأنينة وتشعره بأنه فى كنف شجاع كريم : « **لاتخف نجوت من القوم الظالمين** » لاتخف هذه ينطق بها الرجل

القوى الواثق حين يشمل الناس بعطفه وحنانه ، وتجرى هذه التى توحى الى السامع باطمئنان النفس وراحة القلب وهدوء الخاطر ، ومن القوم الظالمين تلك التى تدفع عنه القلق النفسى وتأنيب الضمير ·

وتبدأ مرحلة أخرى تصور الاعجاب بالفتى والاحتيال على لقاء الحبيب ، اذ تتقدم احداهما الى أبيها وتطلب اليه أن يستأجره ، ومن يستأجر ؟ ان خير من يستأجر القوى الأمين ، وكان الشيخ قد فطن الى المراد فاسرع الى تحقيق رغبة الفتاة ، وأقدم على الفتى بهذا القول المؤكد الذى يقطع على المتردد كل سبيل « **انى أريد أنكحك احدى ابنتى هاتين** ·· » ويستجيب الفتى وهو الشريد المقتفى ، وهو القاتل المستجير ويجيب بتلك الجملة التى تشعرنا باستسلام ، وكأنه الطفل الصغير امام الشيخ الكبير « **ستجدنى ان شاء الله من الصالحين** » ويتم الاتفاق ويشهدان الله لانه على ما يقولان وكيل ··

وكان القرآن يعتمد فى أحيان كثيرة على تصوير الحركات لتدل بدورها على الانفعالات قوة وضعفا وعنفا ولينا، وذلك من أمثال قوله تعالى : «**ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله ، جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا انا كفرنا بما أرسلتم به وانا لفى شك مما تدعوننا اليه مريب** » وقوله : « **فأقبلت امرأته فى صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم** » · وقوله: «**وانى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** » · وقوله : « **وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا انا لنراها فى ضلال مبين ، فلما سمعت بمكرهن أرسلت اليهن وأعتدت لهم متكئا وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت اخرج عليهن ، فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاشا لله ماهذا بشرا ان هذا الا ملك كريم** » ·

وقوله : « **وامرأته قائمة فضحكت** »

كما كان يستعين أحيانا بالعبارات التصويرية والصيغ الدالة على الانفعال نحو قوله تعالى : **قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا** » وقوله : « **فأجاءها المخاض الى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » وقوله : « **يا أبت لاتعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ،يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن لتكون للشيطان وليا** » · وقوله : «**فلما وضعتها قالت رب انى وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى وانى سميتها مريم وانى أعيذهـــا بك وذريتهـــا من الشيطان الرجيم** » · وقوله : « **واذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم اذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم** » ·

وعلى كل فيجب ألا ننسى أن أسلوب القرآن ـ فى الغالب ـ هو أسلوب التخاطب فقد كان القرآن يلقى على القوم القاء ، ومن هنا وضحت فى قصصه أساليب الحديث والمشافهة خاصة فى مبدأ القصة نحو : ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم ، ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه ، واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها الخ ·

❋ ❋ ❋

أسلوب الحوار :

ليس من الضرورى أن يوجد الحوار فى كل قصة ، فقد تخلو منه القصة وتمضى

على أنها صورة لشخص أو رسم لحادثة ، وهذا هو الغالب في القصص القصيرة ، ثم هذا هو الامر الذى مضى عليه القرآن فى كثير من قصصه الذى يقصد فيه التخويف بل مضى القرآن الى شىء آخر فى دعايته للعقائد أو ضدها فأدار الحوار على أنه الخواطر النفسية التى تلم بالشخص والتى تنقله من طور الى طور ليتخلص من عقيدة ويدخل فى أخرى ، وهذا هو الأمر الواضح كل الوضوح فى قصة ابراهيم من سورة الانعام : **« واذ قال ابراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة ، انى أراك وقومك فى ضلال مبين ، وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال ياقوم انى برىء مما تشركون، انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفا وما انا من المشركين »** .

لكنا ـ مع كل هذا ـ نجد كثيرا من القصص القرآنى كان الحوار فيه عنصرا مهما ـ ان لم يكن العنصر البـــارز ـ وهو موجود على كل حال فى كل قصـــة تعددت شخصياتها وذلك من مثل قصة يوسف وقصة موسى فى طه ، وقصة آدم فى الأعراف ثم فى مجموعات قصص سورتى هود والشعراء وفى قصة ابراهيم فى سورة مريم وفى غيرها من القصص الذى يراد به التثبيت أو شرح مبادىء الدعوة الاســلامية ، ونستطيع أن نضرب مثلا لذلك هذا الجزء من قصة موسى فى سورة طه « **اذهب أنت وأخوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ، اذهبا الى فرعون انه طغى ، فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى ، فأتياه فقولا انا رسولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ، انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى . قال فمن ربكما ياموسى . قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ، قال فما بال القرون الأولى ، قال علمها عند ربى فى كتاب لايضل ولا ينسى ، الذى جعل لكم الارض مهدا وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى، كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى، منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ، ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ، قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك ياموسى، فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا انت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ، فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ، قال لهم موسى ويلكم لاتفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى . . الخ . . »** .

* * *

وموضوعات الحوار فى القصص القرآنى هى الموضوعات الدينية فى الغالب ، وهى الموضوعات التى بسببها قام بين النبى عليه السلام وقومه جدل عنيف ، وتلك من أمثال الوحدانية والبعث وكون الرسل من البشر وليسوا من الملائكة وأحداث المعجزات الخارقة للدلالة على النبوة وغيرها ، وقد سبق أن صـورنا كثيرا من هـــذه الموضوعات فى الفصول الاولى عند حديثنا عن القيم الدينية والاجتماعية فلا داعى لذكرها هنا .

وطريقة القرآن فى تصوير الحوار تقوم على أساس الرواية ، فيحكى القرآن أقوال الاشخاص ويصدرها بقوله : قال أو قالا أو قالوا .

هذا التصدير يلفت ذهننا الى أمر خاص بالحوار فى القصص القرآنى هو أنه ليس من اللازم أن يقوم الحوار بين اثنين ، فقد يكون بين كثرة • وكل هذه الامور ملحوظة فى القصص القرآنى ، فيكون الحوار بين اثنين كالحوار بين ابليس وآدم ، وبين ابراهيم وأبيه وبين موسى وفرعون • ويكون بين واحد من طرف واثنين من طرف آخر ، كما هو الواضح فى قصة موسى السابقة ، فقد كان موسى وهارون الركن الثانى من أطراف المحاورة • وقد يكون بين واحد من طرف وجماعة من طرف آخر كالحوار الواقع فى أكثر القصص القرآنى بين الرسل وأقوامهم من مثل قوله تعالى :

« ولقد أرسلنا نوحا الى قومه انى لكم نذير مبين ألا تعبدوا الا الله انى أخاف عليكم عذاب يوم أليم ، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك الا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك الا الذين هم أراذلنا بادى الرأى وما نرى لكم ما علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، قال يا قوم أرأيتم ان كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون ، ويا قوم لا أسالكم عليه مالا ان أجرى الا على الله وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقوا ربهم ولكنى اراكم قوما تجهلون ، ويا قوم من ينصرنى من الله ان طردتهم أفلا تذكرون ، ولا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك ولا أقول للذين تزدرى أعينكم لن يؤتيهم الله خيرا الله أعلم بما فى انفسهم انى اذا لمن الظالمين ، قالوا يا نوح قد جادلتنا فاكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين ، قال انما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين ولا ينفعكم نصحى ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم واليه ترجعون » •

والقضايا التى يعتمد عليها القرآن فى حواره ترجع فى الغالب الى المسلمات الدينية أو المسلمات بحسب العرف والبيئة ، ومن هنا تقوم على أساس اللذة والالم أو المنفعة والمضرة وانهما بيد الاله المتفضل يمن بهما على عباده ، كل وما يستحق•

* * *

والاسلوب الادبى فى الحوار يخضع خضوعا يكاد يكون تاما لسمات الاسلوب القرآنى كله ولذا نلحظ فيه هذه السمات :

١ ــ ان لغة الاسلوب تختلف باختلاف الموضوعات والطور الذى نزلت فيه ، ومعنى ذلك أنه أسلوب فنى يجرى فى كل قصة من القصص على وتيرة واحدة ، ومعنى ذلك أيضا أن القرآن كان لا يساير نفسية المتحاورين بقدر ما يساير نفسية محمد عليه السلام ونفسية معاصريه ، ومن هنا خضع أسلوب القصص لتلك المميزات العامة المعروفة عن أسلوب القرآن فى عهدين المكى والمدنى •

٢ ــ يلاحظ أنه فى القصص الذى نزل أولا ، كان يعتمد على الرنين الصوتى للألفاظ ، يعاونه فى ذلك الفقرات القصيرة المسجوعة ، وذلك لان عاطفة النبى عليه السلام كانت فى ذلك الطور قوية جياشة مندفعة ، ومن هنا كانت الانتقالات الفجائية السريعة التى تظهر فى القصة الواحدة ، والتى تظهر فى مجموعة القصص الواردة فى سورة واحدة ، ولذا كانت القصص قصيرة جدا فى هذه الفترة ، ويمثل هذه السمات قصص سورة القمر •

٣ ــ يلاحظ فى القصص العقائد الجديدة ، ويحاول أن يهدم القديمة ، ان السخرية بالأفكار والعقائد تدخل فيه كعنصر فنى ، وهى سخرية مرة نافذة ، اذ تحاول أن تضع الحقائق الواضحة المتميزة أمام كل ذى عينين ليستفيق من غشيته ،

وليحس احساسا قويا بما هو فيه من ضلال ، وذلك الأمر يمثل قصص ابراهيم عن عبادة الأوثان ، خاصة فى سورة مريم والشعراء ٠

كما يلاحظ فى هذا الجزء شيئا من هدوء العاطفة عند الرسول ، ونلمس ما تحمل الألفاظ من حنان حتى ليشعر القارىء أو السامع انه فى كنف شخص عظيم يظلله برعايته ويحاول أن يصرف عنه القسوة والعذاب ، ويمثل هذا اللون قصص هود وصالح وشعيب من سورة الأعراف كما يمثله قصة ابراهيم فى مريم ٠

٤ ــ فى القصص الذى يأتى للتنفيس والافاضة تكون العواطف جياشة قوية ، وان تكن أميل الى الاستسلام ، وذلك هو الأمر الذى تدفع اليه العلاقة القائمة بين الرسل والأقوام ٠ ومن هنا تأتى الألفاظ هينة مسترسلة لتجرى مع طبيعة العاطفة وما فيها من يأس واستسلام ٠ ومن هنا نلحظ من حين لآخر وجود العنصر الفنى الدينى الذى أسميناه فيما يأتى بالمناجاة ، وهى عبارات أصبحت تقليدية فى بعض الأدعية الدينية ٠

وهنا قد نلاحظ اختلافا فى العاطفة بين المتحاورين ، فيبقى المستكبرون على ما عرف عنهم من قسوة وجبروت ، ويمضى الانبياء بين بين وان غلبت المسالمة ، وذلك لما يكمن فى قلوبهم من محبة الأهل والعشيرة ، ولما يبغون من انتصار الدين ، ولما يرجونه من اسعاد الأهل والعشيرة ، أو اسعاد من تحمله الأرض أو تظلله السماء ٠

وعلى الجملة فالأسلوب القرآنى فى القصص يساير نفسية محمد عليه السلام، وستظهر هذه المسايرة فى حديثنا المقبل عن القصص القرآنى ونفسية الرسول عليه السلام ، وان كنا نجمل الحكم الأدبى فى هذه الجملة ، وهو أن أسلوب القرآن فى التعبير عن أفكار الانبياء والمرسلين أو الأقوام لا يشاكل الواقع وانما يمشى على وتيرة واحدة فى القصة الواحدة ، وهو الامر الذى يحاول أن يمضى القصص على خلافه فى هذه الايام ، اذ نرى الحوار يمثل نفسية المتحاورين وأسلوبهما فى الحديث والمخاطبة ، وعقليتهما فى التفكير وفى الحركات الذهنية ، كما قد يمثل الحرف والصناعات ٠

ومرات قليلة تلك التى نجد الحوار فيها يمثل شخصية المتحاورين وما فيها من قوة وجبروت وما لها من عظمة وكبرياء وتلك هى المحاورات التى يقصها القرآن الكريم على لسان فرعون أو على لسان ابليس حين يحاور كل واحد منهما شخصية الرسول الذى قام الى جانبه فى القصة كشخصيات موسى وآدم عليهما السلام ، وهى مرات لا تجعلنا نطمئن اليها أكثر من اطمئناننا الى الامر الآخر وهو ان الحوار انما يمثل أكثر من كل شىء الدعوة الاسلامية ونفسية محمد عليه الصلاة والسلام ٠